

المنطلقات اللسانية عند عبد الرحمن الحاج صالح

The linguistic premises of Abdul Rahman Al-Haj Saleh

بودية فتيحة¹ مزاری عبد القادر²¹ جامعة مستغانم1 عبد الحميد بن باديس، الجزائر boudiafatiha7@gmail.com² عبد الحميد بن باديس، مستغانم - الجزائر. mazariabdelkader@Yahoo.Fr

تاريخ الاستلام: 2019/10/11 تاريخ القبول: 2019/10/25 تاريخ النشر: 2020/01/05



ABSTRACT:

ملخص البحث

This article highlights the linguistic concepts of Abdul Rahman Al-Haj Saleh, his scientific status, and his remarkable scientific efforts in introducing the original Arabic linguistic heritage, which he was very impressed with to the extent of adopting their terminology and even defending them. He does not hide his great admiration The ancient Ancient Arab grammarians, foremost among them Al-Khalil, Sibweh, and considers himself a member of the nèo-Khalilienne théorie and its defenders.

Keywords: tongue; thought; originality ; heritage; modernity.

يبرز هذا المقال المنطلقات اللسانية عند عبد الرحمن الحاج صالح، ومكانته العلمية، وجهوده الفذة في التعريف بالتراث اللغوي العربي الأصيل، هذا التراث الذي أعجب به أيما إعجاب لدرجة تبني مصطلحاته ودفاعه عنه؛ فهو لا يخفي إعجابه الكبير بالنحاة العرب القدماء وفي مقدمتهم الخليل وسيبويه ويعتبر نفسه من المنتسبين إلى النظرية الخليلية والمدافعين عنها. الكلمات المفتاحية: اللسان، الفكر، الأصالة، التراث، الحداثة.

1. مقدمة:

عرف الدرس اللساني شيوعا ورواجا كبيرين في أوساط الدارسين العرب منذ أن تعرّفوا على منتجات الثقافة الغربية في هذا المجال، فأثر ذلك على توجهاتهم الفكرية حين تناولهم القضايا اللغوية، وانقسموا بين ممجّد للتراث، وداعٍ للانفتاح على ما استجد به البحث اللغوي، وإسقاط مناهجه وإجراءاته على اللغة العربية وفريق ثالث وسط، وقف من القضية موقف اعتدال، فانتفع بالتراث من خلال معطيات الحداثة والإبداع في البحث العلمي وهذا الفريق آمن بأن الأصالة في

¹ المؤلف المرسل: بودية فتيحة

" المعارف المتصلة بالعلوم الإنسانية لا يمكن أن تعني الاكتفاء بنفسها والانغلاق على الذات دونما سعي من أجل التطور كما غدا مرارا أنّ الحداثة لا يمكن أن تعني الانسلاخ عن التراث وإهدار ما بناه الأقدمون¹ ".

في خضم هذا الواقع، ظهرت البحوث اللسانية العربية وسعى روادها إلى النظر في القضايا اللغوية للعربية الفصحى في صورتها المعاصرة، ومقاربتها، أو مقابلتها بصورتها التي وصفها اللغويون القدامى من خلال مصنفاتهم التي عدّها بعضهم ممّا لا يمكن دحضه أو مناقشته، كما ظهرت أعمال اطلّعت على مستجدات البحث في الغرب والمفاهيم التي توصلت إليها، من خلال وصف اللغات الأوروبية، فحاولت مقابلة ذلك بتأكيد أصالة الفكر العربي، وأنّ ما جاء في كتب التراث من آراء لغوية، كان عربي الهوية، يصف قضايا لغوية عربية، وقد رفض أصحابها ما اعتبروه ادّعاءات بتأثر الفكر العربي بالمنطق اليوناني، فاستطاعوا بذلك ردّ الاعتبار للدراسات اللغوية العربية، وأعادوا تقديم مفاهيمها في حلة جديدة تحاول الاستجابة للروح العلمية التي تميّز بها الفكر اللغوي الإنساني الحديث.

ضمن هذا التوجّه، ظهرت أعمال الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح² رحمه الله- المعروف بدفاعه عن التراث العربي وسعيه لوضع نظرية لسانية عربية الهوية تواكب روح العصر، وتقابل في تميّزها وثنائها نظيرتها الغربية فكانت له إسهامات عديدة ومشاريع إجرائية رائدة، ساهمت في تجاوز حالة الركود التي عرفها البحث اللساني في بعض فتراته الحديثة.

2. أهم الآراء اللسانية التي قام عليها مشروع عبد الرحمن الحاج صالح:

يعدّ الدكتور الحاج صالح-رحمه الله- علم من أعلام الفكر اللساني في الجزائر وفي الوطن العربي، له اطلاع واسع على الفكر اللغوي عند العرب وعند الغربيين، ويحتلّ مكانة مرموقة عند طلابه في الجزائر وفي المشرق العربي، يجلّ العلماء القدماء ويعجب بأرائهم؛ قال عنه أحد طلابه وهو يتحدث عن الآلات التي أهّدها علم الفيزياء إلى علم اللغة: " وإقرارا بالحقّ ومن باب عزو الفضل إلى ذويه يحسن بنا هاهنا أن ننوّه بالبحوث الصوتية المخبرية التي اضطلع بها أستاذنا الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، وعرض فيها على محك هذه الآلات ما جاء في كتب علمائنا الأقدمين، ولاسيما ما رواه سيبويه عن شيخه الخليل بن أحمد في مخارج الحروف وصفاتها، فتبيّن له أنّ كثيرا من آرائهم بلغت من الحصافة، وأنّ غرائزهم أوتيت من الرّهافة ما جعل نتائجهم تقارب النتائج التي توصّلت إليها الآلات"³.

لقد تبيّن له أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي⁴ - وهو المؤسس الحقيقي للنظرية اللغوية العربية - قد أدرك بفكره الثّير أنّ اللغة تتألف من مجموع المفردات والمفردات إنّما تتألف من أجزاء، وهذه الأجزاء هي الحروف، فلا بدّ إذن لمن يريد أن يدرس اللغة، ويتفهم طبيعتها أن يبدأ بدراسة الحروف، والحروف ينتجها جهاز النطق، وجهاز النطق عند الإنسان واحد، فكان ترتيبه للحروف بحسب مخارجها من الحلق إلى الشّفتين ترتيبا " فوجد العين أدخل الحروف في الحلق، فجعلها أوّل الكتاب ثم ما قرب منها، الأرفع فالأرفع، حتى أتى على آخرها وهو الميم"⁵ وقد بنى ذلك على أساس علمي واضح.

ويدلّ على مثول هذه الفكرة في ذهنه ما حكاه الليث بن المظفر عنه قال: " كنت أسير إلى الخليل فقال لي يوما لو أنّ إنسانا قصد وألف حروف ألف وباء وتاء وثاء على ما أمثله لاستوعب في ذلك جميع كلام العرب، فتهيّأ له أصل لا يخرج عنه شيء منه البتة، قال: فقلت له وكيف يكون ذلك؟ قال يؤلفه على الثلاثي والرّباعي والخماسي وأنّه ليس يعرف للعرب كلام أكثر منه"⁶.

كان الخليل إذا أراد أن يحدّد مرتكز الصوت أو مخرجه فتح فاه بألف ثم أظهر الحرف نحو أبّ أ حّ أ ع واستطاع بهذه الطريقة البسيطة أن يحصل على الكثير من النّتائج العلمية الدقيقة التي انتهى إليها المحدثون بالاستعانة بتطور العلم

والآلة. يقول الدكتور مهدي المخزومي: « ومن الطّريف حقا أن نرى مصطلحات علم الأصوات الحديث تتفق أكثرها مع المصطلحات التي وضعها الخليل، وهي قريبة منها كلّ القرب، بل كان كثير منها يشير إلى أنّها مصطلحات الخليل ترجمت ترجمة تكاد تكون حرفية فمصطلح المجهور يقابله بالإنكليزية مثلا مصطلح (voiced)، ومصطلح المهموس يقابله مصطلح (Voiceless) أو (Unvoiced) ومصطلح الشديد يقابله مصطلح (Stop) أو (Plosive) ومصطلح الرخو يقابله مصطلح (Continuant) أو (Fricative) ومصطلح المكرّر وهو الراء يقابله مصطلح (Trilled) أو (Rolled).⁷

ولم يكن لعلم الأصوات اللغوية عند الغربيين تاريخ بعيد، وكلّ ما كان لهم من ذلك هو ما سبق إليه اليونان من دراسة للظواهر الصوتية من ناحية السّماع، ولم يتناولوا دراسة الأصوات من حيث مخارجها، ولا من حيث صفاتها بالصّورة التي تمثّلت على يد الخليل، ما عدا ما وجد عند الهنود الذي تناولوا مخارج الحروف، ولكن ليس هناك ما يشير إلى أنّ الخليل كان متأثرا بعمل من سبقه أو كان واقفا على ما أنجره الهنود ممّا يتعلّق بالأصوات اللغوية، مع تفرّده بدراسة الآثار التي تترتّب عن تمازج الحروف وتجاوزها، وللخليل في ذلك دراسة وافية.⁸

وبغض النظر عن دقّة نسب الحروف (أي الأصوات) إلى مخارجها، فإنّ الخليل قد قسّم الحروف تقسيماً قائماً على وفق مخارجها الصوتية ثمّ ترتيبها على هذا الأساس من أقصى الحلق إلى حروف الشّفة، فكان ترتيبه كالآتي:⁹

- حلقية (ع ح ه خ غ) - لهوية (ق ك) - شجرية (ج ش ض) - أسلية (ص س ز) - نطعية (ط د ت) - لثوية (ظ ذ ن) - ذلقية (ر ل ن) - شفوية (ف ب م) هوائية (و أ ي). وقد سلك الدكتور في مؤلفاته وبحوثه التّرتيب نفسه؛ إذ رأى "أنّ وصف الخليل وسيبويه النظام الصوتي العربي على شكل مصفوفة"¹⁰، لها مدخلان هما المخارج وصفات الحروف التي ليست مخارج، وفضل التّركيب لهذين المدخلين يكمن في أنّه يحصر جميع الأحرف المستعملة والمهملة في حالة معيّنة من تاريخ اللّغة، ويظهر ذلك في المصفوفة في وجود خانات كثيرة فارغة- نشم في ذلك رائحة الخليل- وهكذا يفعل علماء الصوتيات في زماننا¹¹.

هذا السّبق في وضع المصطلحات العلمية، ووصف الحروف وصفا دقيقا وتحديد مخارجها جعل الدّكتور الحاج صالح يعجب بفكر الخليل وبآراء من سار على مناهجه من القدماء، فظهر إعجابه بهم في محاضراته وفي المقالات اللغوية التي نشرها وفي مؤلفاته وفي النّظرية الخليلية التي طوّرها فيما بعد.¹²

1.2 المنطلقات اللسانية لعبد الرحمن الحاج صالح:

ظهر إعجاب الحاج صالح بالقدامى في عدة صور مثّلت منطلقات فكرية لسانية بالنّسبة له ومنها:

- أنّه تبوّى بعض مصطلحاتهم كمصطلح (علم اللّسان) الذي فضّله على المصطلحات التي ظهرت عند العرب في العصر الحديث، فهم حين اتّصلوا بالدراسات اللغوية الغربية أطلقوا عليها أوّل الأمر "فقه اللّغة" لما تبادر إلى أذهانهم من المناسبة بين المدلول لكلمة «فقه» (العلم بالشيء والتعمق في فهمه) وبين ما هو مطلوب في linguistics، إذ هو بحث في أسرار اللسان ثمّ أطلقوا عليها طائفة من «الأسماء مثل علم اللّغة، الألسنية اللسانية، اللسانيات، اللغويات الحديثة، الدراسات اللغوية».¹³

ولكنّه فضّل كلمة "اللسان" على لفظة "اللّغة"؛ "لأنّ لفظة اللّغة كانت تطلق عند النحاة واللّغويين على عدّة معان زيادة على ما يفهم من تحديد ابن جني لها وهو اللّسان بوجه عام."¹⁴

يُعرّف الدكتور اللسان بأنّه "نظام من الأدلة المتواضع عليها، فاللسان على هذا الاعتبار ليس مجموعة من الألفاظ يعثر عليها المتكلّم في القواميس أو يلتقطها بسمعه من الخطابات ثمّ يسجلها في حافظته كما أنّه ليس مجموعة من

التّحديدات الفلسفية للاسم والفعل والحرف أو القواعد المسهبة الكثيرة الشواذ، بل هو نظام من الوحدات يتصل بعضها ببعض على شكل عجيب وتتقابل فيها بناها في المستوى الواحد التقابل الذي لولاه لما كانت هناك دلالة"¹⁵.

ولأنّ "المفهوم العام الذي عرف للفظ اللغة ما عرف في الحقيقة إلا بعد نهاية القرن الثاني الهجري، وأن الأصل في الدلالة عليه هو ما استعمله القرآن الكريم (لا توجد فيه كلمة أخرى لهذا المدلول غير اللسان)".¹⁶ قال الله تعالى: "ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين".¹⁷

ويبرّر صلاحية هذا المصطلح بقوله: "وهناك شيء آخر أيضا يثبت اعتقادنا بصلاحية هذا اللفظ للدلالة على علم اللسان الحديث، وذلك هو ترجمة اللاتينية لكتاب إحصاء العلوم التي قام بها Girardo Cremonensi في القرن الثاني عشر الميلادي، فقد جاءت فيها هذه العبارة Scientia lingue مقابلة للفظ علم اللسان، وقد عرفنا أنّ هذه العبارة هي التي تحدّد بها الآن مضمون ال linguistics في جميع الكتب التي تعالج هذه المادة وهي the science of language وما يمثلها في اللغات الأوروبية الأخرى، ثم إنّ هذه التسمية بهذا المفهوم الذي وجده الأوروبيون في كتاب الفارابي لم يسبق مجيئها فيما قبل ذلك التاريخ في نص يوناني أو لاتيني أو أي نص آخر وبما أنّ هذه الموضوعات العامة التي ذكرها الفارابي كأقسام هامة لعلم اللسان هي التي سيعالجها ال linguistics في عصرنا الحاضر فلا نظن أنّه يوجد لفظ أصلح لتأدية المفهوم الحديث من هذا الذي انطلق منه أصحاب ال linguistics أنفسهم".¹⁸

وفي تبريره هذا إثبات لسبق العلماء العرب في وضع مصطلح علم اللسان وفي تحديد موضوعاته وأقسامه.

ويصرّح أنّ التّحديد الرّوتيني لعلم اللسان - الدراسة العلمية للسان - من قبل الباحثين العرب أصبح أشبه بالحشو أو اللغو الذي لا فائدة منه، وهذا ما دفعه إلى إعادة النظر في مفهومه وتوضيح أغراضه، فرأى أن الأمر يستدعي الالتفات إلى عنصري التّحديد وهما: العلم واللسان الذي هو موضوعه، "فاللسانيات يتعيّن في حقّها أن تعرّف الظاهرة اللغوية أكثر ممّا يتوجّب عليها أن تعرّف نفسها".¹⁹

خلص الحاج صالح إلى تخصيص تسمية علم اللسان فقال "اللسانيات- كما نقول الرياضيات أو البصريات - وأن تخصّص كلمة (لغة) إذا أضيفت إلى العلم للدلالة على دراسة أوضاع المفردات. أمّا إذا أفردت عن العلم فلا بأس باستعمالها مع كلمة لسان للدلالة على المفهوم العام..... وهذا ينبغي الآن أن نحدّد مفهوم اللسان حسب ما عرفه العلم الحديث، وحسب ما هو عليه عند علماء اللسانيات، أي باعتباره موضوعا من مواضيع البحث العلمي، ونتجنب في نفس الوقت كل التّصورات غير العلمية التي ترجع إلى ماهية اللغة ومختلف مظاهرها".²⁰

وقد نفى عن اللسانيات اهتمامها بالمجاز؛ إذ استعملت كلمة "لغة" في كثير من التعابير المجازية مثل قولهم "لغة الزهور" للدلالة على لونها ووضعيتها فهذه المعاني المجازية ليست داخلية فيما يصدق عليه موضوع اللسانيات، بل إن هذا العلم يلقي بالاهتمام على الحقيقة، لأنّ في المجاز انتقاض للتّحديد العلمي، وكذلك من الأمور التي لا يعزّيها إلى علم اللسان - كعلم قائم بذاته - الظواهر المشاركة للأحداث اللسانية كموضوع فرعي لها، كالظواهر التي تنتمي إلى علم النفس أو علم الاجتماع، فكل من منهما له نظرة خاصة اتّجاه اللسان غير نظرة اللسانيات التي تعتبره الموضوع الرئيس لها وبالتالي يقول الأستاذ إنّ الدّراسة اللسانية ستخرج عن مبدئها العام الذي قال به "دي سوسير" وهي دراسة اللسان من اللسان وإليه".²¹

ومن تبنيّه لمصطلحات القدامى أيضا أنّه اختار مصطلح (البنوية) المنسوب إلى (البنية) وفضّله على كلمة (بنوية) الشائعة عند اللّغويين العرب المحدثين لوصف مناهج المدارس الملقبة بـ Structuraliste، ووضّح سبب اختياره لهذه

اللفظة بقوله: "اتبعنا في هذه النسبة رأي يونس بن حبيب النحوي الذي يقول في ظبية ظبوي وهو أخف من ظبيّ ووجهه الخليل"²².

وفيما يخصّ الصّوتيات (Phonétique أو Phonologie) يقول: "أدقّ ترجمة لمصطلح Phonetics وهي كلمة من قسمين؛ صوت؛ للدلالة على المادة المدروسة، وات؛ للدلالة على العلم، فيكون المعنى بذلك؛ علم الصوت أو علم الأصوات، قياساً على كلمات كثيرة منها: لسانيات رياضيات"²⁴ كما اعتبر اللسانيات فرعاً من علم أوسع وأعمّ منها وهو (Sémiologie) أو ما يسمّى علم الأدلة وعلى هذا ليس كلّ ما هو راجع إلى هذا الأخير يدخل في علم اللسان.²⁵

نلاحظ أنّ الحاج صالح في بحثه عن الموضوع الرئيس لعلم اللسان، راح يكشف عمّا يميّز به اللسان بوصفه نظاماً دلالياً صوتياً دون غيره من الأنظمة الدلالية الأخرى غير الصوتية مثل إشارات المرور إشارات الصّم البكم وغيرها.

• أشاد بالجهود اللغوية للقمامي: ورأى أن جلّ ما أثبتوه قد أقرّه العلم الحديث بالاختبار في المختبرات والاستدلال الحاسم وأنّ نظرة الخليل وسيبويه إلى اللسان هي أقرب إلى المفهوم العلمي الحديث، ورأى أنّ العرب لم يكتفوا في بناء أصول علومهم على استقرار النصوص المكتوبة مثل القرآن الكريم بل تعدّوا ذلك إلى ما يمكن مشاهدته مباشرة مثل قراءات القرآن وإنشاد الشعر الجاهلي والشعر الأموي وبالأخصّ كلام فصحاء العرب، وأنّ هذا ليس من الفيلولوجية الغربية التي تكتفي بدراسة النصوص القديمة، وما قام به العرب القدماء من دراسة للأحداث اللغوية على ما هي عليه في زمان ظهورها، هو ما يقوم به علماء اللسانيات اليوم لمعرفة أسرار اللغات.²⁶

• دفاعه عنهم: لا يخفي الدكتور الحاج صالح إعجابه الكبير بالنّحاة العرب القدماء وفي مقدمتهم الخليل وسيبويه وأبو علي الفارسي وابن جني، ويعتبر نفسه من المنتسبين إلى النظرية الخليلية والمدافعين عنها ذلك أنّ أولئك يتحرّون الدقّة العلمية ولا يميلون في الوصول إلى الحقائق العلمية إلى ما يمليه عليهم الهوى. ولهذا نجده يبادر إلى الدّفاع عنهم وتفنيد ما نقله "جورج مونان" عن بعض «المستشرقين من أنّ النحاة العرب يجعلون من العربية أمّ اللّغات وأنّها لغة أهل الجنة بل لغة الله» يقول: "أمّا القول الأوّل والثاني فما رأينا أحداً من النّحاة الأوّلين لا الحقيقين ولا المجتهدين يقولونه أو يجزم به بل وجدناه عند بعض المؤرخين والمفسّرين ممّن كان يجمع كل ما يسمعه بدون أي نقد- مثل ابن اسحاق - فاعتمدوا الأساطير الفلكلورية التي كان يروّجها القصاص ... أمّا النّحاة واللّغويون فكانوا يمسكون عن ذكر مثل هذه الأشياء. وقصارى ما قال البعض منهم هو أنّ أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل، والمراد بالمبينة هذه التي نزل بها القرآن أمّا عربية القبائل البائدة مثل "جرهم" فكانوا يقولون إنّها عربية أخرى غير كلامنا هذا ... أمّا القول الثالث فهو شنيع وأشنع من هذا أن ينسب إلى علماء العرب"²⁷.

ويزيد على ذلك أنّ للعرب فضلاً على الأوروبيين، ومن ذلك أن المحدثين من الغربيين "حكموا على العربية بأنّ ليس لكلماتها أصول في اصطلاحهم"، والأصل = الجذر (racine, root, wursel) مع أنّ هذا المفهوم نفسه قد أخذوه عن العرب عند اطلاعهم على ما ترجم في القرن السادس عشر من كتب النّحو قبل أن يطّلعوا على ما يشبه ذلك في نظرية الهنود²⁸ وينقل قولاً لجورج مونان (Georges Mounin) يرى فيه أنّ اللسانيات "نشأت في القرن الخامس قبل الميلاد أو في سنة 1926 مع بوب (Bopp) أو في سنة 1816 مع تروباتسكوي (Troubetzkoy) أو في سنة 1956 مع تشومسكي"²⁹.

ويعلّق عليه بقوله: "إنّ هذا القول لوجيه جدّاً ولا ينقصه إلّا نظرة الباحث الذي اطّلع على ما أنتجه العلماء العرب القمامي في هذا الميدان؛ إذ ربّما تقضي نظرتهم إلى اللسانيات واطّلاعه على علوم العربية إلى أن يجعل مبدأ انطلاق

الدّراسة العلمية للّسان في القرن الثاني للهجرة، وبالأصحّ في فترة ما بين 100 و175 بعد الهجرة (هي سنة وفاة الخليل بن أحمد) ولكن هذه وجهة نظر ليس³⁰.

2.2 مفهوم الأصالة عند عبد الرحمن الحاج صالح:

جاءت محاولة تحديد مفهوم دقيق لمصطلح الأصالة عند عبد الرحمن الحاج صالح إجابة عن تساؤل مهم وجوهري، عرفته ساحة البحث اللغوي العربي الحديث، وهو ما شأن العلوم اللغوية في الآونة الأخيرة؟ وهل تأثيرها على المثقفين العرب يعتبر مسّا بالأصالة؟ ونجده يخالف الاعتقاد الشائع عند الباحثين أنّ الأصالة هي في مقابل الحداثة أو المعاصرة، إذ إنّها "تقابل في الحقيقة التقليد أيّا كان المقلّد المحتذى به سواء أكان العلماء العرب القدامى أم العلماء الغربيين؛ إذ الأصل هو الذي لا يكون نسخة لغيره، فكأنّ هؤلاء المثقفين بجعلهم الأصالة في مقابل المعاصرة لا يتصوّرون هذه الأصالة إلّا بالرجوع إلى القديم؛ فالأصيل في الواقع هو المبدع الذي يأتي بشيء جديد لم يسبق إليه مهما كان الزمان الذي يعيش فيه، والأصالة في زماننا هذا وعلى هذا الأساس هي الامتناع من تقليد الغربيين خاصّة".³¹ كما يشير إلى أنّ الأصالة "تكمّن في عدم الاطمئنان مقدّمًا وقبل النّظر إلى كلّ ما يصدر من الغير حتّى يقوم الدّليل الذي يحمل الإنسان بل يجبره على تقبّل أقوال غيره".³²

وهذا يكون التقليد منبؤًا مهما كان مصدره؛ فالبحث اللغوي الأصيل هو الذي يسعى إلى الإبداع والابتكار وعدم أخذ آراء الآخرين مأخذ القداسة، وعدم تقبّل مناقشتها مع أنّه في الآن ذاته يقرّ أنّه لا يمكن بأيّ حال أن يتحقّق الابتكار الكلّي دون حاجة إلى ما تحقّق سابقًا؛ فإنّه "يستحيل أن يعيش الإنسان بالاعتماد على ما يصنعه هو وحده أو يرقى به العلم بدون أن يراعي ما ابتكره الآخرون، والعلم بهذا الاعتبار هو أحوج الأشياء إلى التّفاعل والتّداخل والأخذ بما يأتي به الآخرون".³³

3. منهج عبد الرحمن الحاج صالح:

لقد تتبّع الحاج صالح الأسس التي يبنى عليها أي بحث إذ على الباحث اتّباع قوانين تجعل عمله أصيلاً لا تقليد فيه ولا مغالطات فكرية، تجعله يحكم على القديم بالزّداء لقدمه، ويحكم على الجديد بالجودة فقط لجدته.³⁴

بهذه الطّريقة التحليلية، استطاع الحاج صالح تقييد البحث العلمي الخلاق والمبدع، واكتشف مقاصد النّحاة الأوّلين وبالتّالي إلى النّظرية العلمية التي بُني عليها النّحو العربي الأصيل كلّ، وقد كان اتّجاهه إلى الإصرار على أن يكون البحث اللغوي أصيلاً، وعدم التّقليد من الغرب أو حتى من بعض العرب القدامى دون تمحيص إيماناً منه أنّه إذا تمّ للباحث ذلك، استطاع هو نفسه أن يكون موضوعياً في الحكم على الدّراسات العربية القديمة ولا ينساق وراء بعض الادّعاءات التي مسّت النّحو العربي خاصة، والتي جعلت بعض الباحثين العرب المحدثين يحدون عن الغرض الأساسي لدارسة اللغة العربية؛ وفي هذا الصّد يقول: "اهتمامنا بالعلماء الأوّلين لا يعني أنّنا نسلم لهم كلّ ما قالوه، والدّليل على ذلك أنّنا وضعنا أوصافهم لمخارج الحروف وصفاتها وكلّ ما جاء في كتبهم من التّعليلات تحت محكّ الاختبار الآلي في مخبر الصّوتيات الإلكتروني، فجاءت هذه الأوصاف في الغالب موافقة للصّواب... إنّنا وجدنا فيما يجريه مهندسوننا في معهدنا وغيرهم في المعاهد العلمية من البحوث في الإشارة الصّوتية ما يثبت الكثير من المفاهيم العربية الأصيلة من تلك التي لا يوجد لها مقابل في الحضارات الأخرى كالحركة والسّكون وحرف المدّ".³⁵

لقد بذل جهداً كبيراً من أجل الحفاظ على اللغة العربية وإثرائها وجعلها وافية بمستحدثات العلم الحديث قادرة على الدّوام على أداء رسالتها، فكان يصرّ على المعرفة بالنّماذج الفدّة التي تكسب المتن اللغوي الصحيح، لا العربية التي يغلب عليها السجع وانتقاء الألفاظ، فلا يلزم امتلاك معرفة مستفيضة بالتّفصيلات المعقّدة للنّحو العربي، لأنّه لا ينظر

إلى النحو على أنه الإعراب والتفهم، بل الأساس هو في التمسك بآليات الإعراب الذي يجلي المعاني، وبهذا غرس الاتجاه العقلي في اللغة بعد تنقيح النقل، وظلّ قواماً على العمل الأكاديمي في أعماله التي ربطت الدراسات العربية القديمة والحديثة، مع الدراسات الغربية.³⁶

وعنه يقول الأستاذ صالح بلعيد: "لأستاذ غرام خاصّ باللسانيات وفقه اللغة، فهو من دعاة القراءة الواعية للتراث والدراسة العميقة له بمفاهيم أنية ففي هذه النقطة لا يهدم مسلمات سابقة، بل بينها على وعي جديد... وهكذا يرى أن اللغة العربية يجب أن تقرأ من خلال اللسانيات الحديثة، هذا العلم الذي حفل به كثيراً، وكتب فيه مواضيع شتى³⁷، وقارن بين الدراسات اللغوية العربية القديمة، وبين ما أنتجه علم اللسان الحديث، ليرى أن هذا العلم أوسع مجالا وأكثرها نفوذاً ونجوعاً، لا بالنسبة إلى ما كان عليه فيما مضى فقط، بل بالنسبة أيضاً إلى ما استفادت العلوم الإنسانية الأخرى من تجديد عميق بتطبيقها لمناهجه الخاصة على مواضيع أبحاثها. ومن خلال ذلك أعاد النظر في كلّ المعلومات والمناهج التي تركها السلف؛ باعتبار أنّ اللسانيات ثورة على تلك المفاهيم التي لا تحيد عن النمط القديم لدرجة القداسة".³⁸

1.3 أهمّ النتائج التي توصّل إليها الحاج صالح: لقد اعتمد الحاج صالح في مجال علم اللسان التحليل والنقد لأهمّ مفاهيمه ومناهجه ونشأته وأطواره، متناولاً الحديث عن عصر الدراسات المقارنة والتاريخية مشيراً إلى مدلول علم اللسان الحديث، وهكذا جال في الظواهر اللسانية مستخلصاً ما يلي:³⁹

1- اللسان قبل كل شيء أداة تبليغ. 2- اللسان ظاهرة اجتماعية. 3- لكل لسان خصائص من حيث المادة والصورة. 4- اللسان في حدّ ذاته نظام من الأدلة. 5- لسان منطقته الخاص به. 6- اللسان وضع واستعمال ثم لفظ ومعنى في كل من الوضع والاستعمال. 7- للبنى اللغوية مستوى من التحليل غير مستوى الوضع، وغير مستوى الاستعمال.

ويلتزم الحاج صالح الموضوعية في طرح مواضيعه التراثية؛ فهو يبدي من خلال أعماله الانحياز للتراث ممثلاً في آراء القدماء، دون المبالغة في الإشادة بهم وبأعمالهم، ولا محاولة تخطيئهم أو مخالفتهم، كما لم يصغّر من جهود المحدثين بحجة أسبقية آراء القدماء عليهم، إنّه عمل منظّم موضوعي اعتمد فيه أسلوباً توافيقياً يسعى من خلاله إلى استخلاص الآراء اللغوية المتطورة في التراث العربي مع عقد مقارنة بينه وبين الحداثة.

يقول في هذا الصدد: "المقصود من هذا⁴⁰ ليس هو أن تأخذ ما يقوله المحدثون من علماء اللسانيات وتنطلق منه كأصول، ثمّ تنظر ما الذي يوافق ذلك فيما جاء به العلماء القدماء من أقوال فتحكم على بعضها بالصحة لموافقتها لها وبعضها بالخطأ (بل بالبدائية) لمخالفتها، فهذا تعسف محض؛ لأنّ النظريات والمذاهب ليست هي الحقائق العلمية التي يجتمع على صحتها كل العلماء. ومن جهة أخرى فهناك أصول علمية مجمع عليها في زماننا بين جميع العلوم لا في علوم اللسان فقط فهي التي يجب أن تكون كالمحك في اختبار الصفة العلمية لأي فكرة ولأي مذهب ولأي منهج لعمومها وانطباعها على جميع المعارف ولعدم الخلاف فيها... كما أنّ المقصود ليس هو إسقاط هذه المذاهب والنظريات الحديثة على المذاهب العربية القديمة... وكلّ يعرف أنّ لكلّ عصر نظرة خاصّة وتصوراً خاصاً للظواهر وكيفية خاصّة للكشف عن أسرارها، والمنظور العربي يميّز بلا شك في هذه العلوم اللسانية عن المنظور الغربي الحديث، ثمّ لا بدّ أن نعرف أنّ الكثير ممّا هو موجود عند الغربيين ورثوه عن الحضارة اليونانية"⁴¹ وفي هذا دليل قاطع على موضوعيته والتزامه بهدفه، وهو ربط الفكر اللغوي العربي بالفكر اللساني الحديث. ويتمثّل انتظام العمل التراثي عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح من انتظام الأفكار التراثية واللسانية المعروضة ضمن النظرية

الخليلية الحديثة، فهو ينطلق- في أغلب الأحيان- من القديم، ثم يعود إلى الحديث مؤسسا بذلك موازنات تنظم فيها آراء القدماء من ناحية كما تنتظم آراء المحدثين من الناحية الأخرى.

وتتماسك هذه الأفكار جميعا لتخدم الفكرة العامة التي يطرحها ويسعى لتأكيدھا، دون خلط للآراء، أو إسقاط تام للحديث على القديم- كما ذكر- ويتجسد ذلك بوضوح من خلال اعتماده المصطلحات التراثية للتعبير عن مفاهيم القدماء، فضلا عن اعتماده المصطلحات الحديثة للتعبير عن مفاهيم المحدثين، وإن كان مفهوم القدماء فضلا عن اعتماده مصطلح (قسمة التراكيب) مقابل التوزيعية في المدرسة الاستغرافية، واعتماده مفهوم (اللفظة) التي لا يوجد في اللسانيات الغربية واقترح ترجمتها بـ (Lexai) وغيرها من المصطلحات، فضلا عن وعيه بالمصطلح الغربي الحديث والعمل على توظيفه في اللسانيات العربية بما يتلائم مع السياقات المعرفية التي نشأ فيها هذا المصطلح، مثل مصطلح الإيزومورفيزم Isomorphisim وقصد به (التكافؤ بين العمليات) أو (التكافؤ في القياس)، وقد تبني الدكتور الحاج صالح في النظرية الخليلية الحديثة أسلوبا علميا دقيقا، يعالج الأفكار بشكل بسيط سهل الفهم دقيق القصد، يركز فيه على المعلومة كما تبناها سواء أكانت تراثية أم حديثة، عاملا على إجراء الموازنات بينها، دون التوسع في الأفكار والاسترسال في الحديث فيبتعد بذلك عن كل ما ليس له علاقة بالموضوع.

4. خاتمة:

مما تقدم يتضح لنا أن الدكتور الحاج صالح لا يكتفي في أعماله التراثية بالمعالجة العامة، بل يعمد إلى المسائل الدقيقة فيحللها ويستخلص أهم ما تقوم عليه من مبادئ بما اتفق معها في النظريات اللسانية الحديثة. إن هذا المنطق يدل على أنه لا يستند في أعماله على إخضاع التراث اللغوي لتيار لساني محدد فلم يقل إن التراث اللغوي بنوي أو توليدي تحولي، بل حاول طرح المفاهيم ومقابلتها بما شابهها، سواء أكانت بنويا أو توليديا أم غير ذلك. وبذلك تصبح الموازنة لديه موازنة مفهومية جزئية، لا موازنة نظرية عامة، وهذا يعني أنه يتجنب إصدار الأحكام العامة التي تخضع التراث اللغوي العربي لتيار لساني محدد، بل يحاول تناول الموضوعات بدقة وموضوعية وفق منهجية علمية يزاوج فيها بين العرب القدمى واللسانيات الحديثة.

أما من حيث المنهج، فتعد دراسة التراث وربطه بالفكر اللساني الحديث، عملية دقيقة وصعبة التحقيق خاصة وأن تراثنا اللغوي يتميز بضخامة حجمه المبعثر في بطون الكتب المتعددة الاتجاهات، لذا تأخذ عملية دراسته بعدين: - البعد الأول: جمع نتائجه وحصر مادته لتفسيرها وفهم أبعادها.

-البعد الثاني: وضعه موضعه الصحيح من الدراسات اللسانية الحديثة.

إن عملا ضخما كهذا، يستدعي جهدا لا يمكن أن تغطيه تلك الجهود الفردية المبذولة من قبل بعض اللسانيين ولبلوغ ذلك يشير الدكتور إلى ضرورة تضافر مجهودات اللسانيين العرب لتغطية أكبر عدد ممكن من اللغويين العرب، ودراسة أهم القضايا المتطورة التي احتوتها أعمالهم، ومن ثم ربطها بالتراث اللغوي العالمي⁴².

وكغيره من اللسانيين المعاصرين، اهتم الحاج صالح بدراسة التراث اللغوي العربي، بعد قراءة متأنية دقيقة لمفاهيم النحو العربي، مقدما عددا من المحاولات للكشف عن أصالة النحو العربي،⁴³ والتقارب القائم بين التفكيرين، وللزد على التهميش الذي شهده التراث اللغوي العربي في مسيرة التأريخ للسانيات، محددا المفاهيم والمصطلحات وطرق التحليل الخاصة بنظريته على غرار ما تعرف به النظريات اللسانية الحديثة، وقد عبّر عن المنهج الذي اتبعه في ذلك قائلا: "إن أحد الأسباب التي دفعتنا إلى كتابة هذا التحليل... هو هذا التناسب الوضعي الذي

يوجد بين اللسان الحديث وبين علم اللسان العربي الذي وضعه العلماء العرب في أواخر القرن الأول الهجري... فهذا التناسب لجدير بالدراسة.⁴⁴

ويمكن تقسيم منهج الحاج صالح على مستويين:

الأول: مستوى المفاهيم: ويتجلى من خلال إحيائه للمفاهيم والمصطلحات العربية الأصيلة، وكشفه عن دلالاتها الحقيقية، والرياضية، والتي جاءت بمنهجية وعلمية مستقلة عند النحويين القدماء، والتي تصلح أن تكون مبادئ لنظرية لغوية نحوية.

الثاني: المستوى التقني: استثماره لهذه المفاهيم ودلالاتها الحقيقية بصورة عملية في تطوير هذه اللغة وضمن حيويتها واستمراريتها.

وقد جاء خطابه التراثي محصّلة تقاطع مجموعة خطابات: الخطاب التراثي والخطاب اللساني الغربي وخطابه الخاص المتمثل في تحليلاته واستنتاجاته وموازناته التي يقيمها بين المفاهيم العربية والمفاهيم الغربية؛ إذ بنى فكره اللساني على التراث اللغوي العربي القديم والنظريات اللسانية الغربية الحديثة، وأشاد بجهود علمائنا الأفاضل أمثال "الخليل" و"سيبويه" و"أبي علي الفارسي" و"ابن جني"، وما تركوه لنا من أفكار نيرة مازالت ماثلة للعيان إلى اليوم، بانبا بذلك نظرية متكاملة أطلق عليها اسم "النظرية الخليلية الحديثة".

5. الهوامش:

¹ محمد بوعمامة: التراث اللغوي العربي بين سندان الأصالة ومطرقة المعاصرة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد 3/2 جوان 2008 م ص 208.

² ولد الدكتور "عبد الرحمن الحاج صالح" بمدينة وهران سنة 1927م. درس في مصر وفي بوردو وباريس. تحصّل على التبريز من باريس ودكتوراه الدولة في اللسانيات من جامعة باريس - السوربون - كان أستاذا بجامعة الرباط سنة 1961 إلى سنة 1962 م وبجامعة الجزائر بعد ذلك، وصار مديرا لمعهد العلوم اللسانية بالجزائر، ثمّ مديرا لمركز البحوث العلمية لترقية اللغة العربية وعيّنه الرئيس "عبد العزيز بوتفليقة" رئيسا للمجمع الجزائري للغة العربية سنة 2000م وهو عضو في المجمع الآتية: دمشق، بغداد عمّان والقاهرة. أشرف على مشروع الذخيرة العربية الدولي، له مؤلفات متعدّدة في علوم اللسان واللسانيات العربية. توفي رحمه الله يوم 05/03/2017. ينظر: الحاج صالح عبد الرحمن: بحوث ودراسات في علوم اللسان، موفم للنشر الجزائر 2007، الغلاف.

³ د. غازي مختار طليمات: في علم اللغة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط2، 2000، ص 34.

⁴ هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد قال بن أبي خيثمة أحمد أبو الخليل، ولد حوالي عام 100هـ، ولكن نشأته بالبصرة غلاما، ولم يبرز الخليل في العلوم اللسانية من نحو ولغة وشعر فحسب، بل كان له دراية واسعة بالعلوم الشرعية والعلوم الرياضية، وأكثر من هذا كان بارعا في الموسيقى والنغم، كان ذا عقلية مبتكرة فوضع علم العروض، وقد كان أيضا رياضيا عارفا بعلم الحساب إلى حدّ يعتبر فيه سابقا لأوانه، وإن عقلية فذة كعقلية الخليل لا يستبعد أن يكون صاحبها مبتدعا لأسس العروض ومبتكرا للتنظيم المعجمي، بل إن أحد المستشرقين من فرط إعجابه بنظريات الخليل صرح بأن نظام العين ليس غريبا أن يكون من عمل الخليل، بل الغريب ألا يكون منسوباً إليه. أمّا مؤلفات الخليل الأخرى، فلم يصلنا منها شيء، وقد وردت أسماءها متناثرة في كتب الطبقات وقد جمعها دائرة المعارف الإسلامية في ستة كتب هي: النقط والشكل، النغم العروض، الشواهد، الإيقاع، الجمل. توفي بالبصرة سنة سبعين ومائة

- وعمره أربع وسبعون سنة. ينظر، الخليل بن أحمد الفراهيدي: معجم العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2003، ج1، ص8 وما بعدها. وينظر أيضا ابن النديم: الفهرست، تحقيق أحد أساتذة الجامعة المصرية، دارالمعرفة، بيروت- لبنان، ص63-64.
- ⁵ د. أحمد محمد قدور: أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، دار الفكر دمشق، سوريا، ط2، 2003، ص85.
- ⁶ ابن النديم: الفهرست، ص64-65.
- ⁷ د. مهدي المخزومي: عبقري من البصرة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- ط2، 1989، ص41.
- ⁸ ينظر، د. مهدي المخزومي: المرجع نفسه، ص41-42.
- ⁹ ينظر، الخليل بن أحمد الفراهيدي: معجم العين، ج1، ص58.
- ¹⁰ المصفوفة (Matrice): من المصطلحات الرياضية التي استعملها الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في مؤلفاته وبحوثه ويعني بها: جدول يتألف من كذا صف وكذا عمود وبه تستفرغ جميع التراكيب التي يمكن أن تصاغ عليها العناصر المدخلة على الجدول. ينظر: د. عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص219.
- ¹¹ د. عبد الرحمن الحاج صالح عبد الرحمن: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موقف للنشر، 2012، ج2، ص67.
- ¹² ظهرت هذه النظرية سنة 1979 في أطروحته التي نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون بباريس والتي كانت بعنوان: linguistique arabe et linguistique générale essai de méthodologie et d'èpistemologie du ilm al- Arrabiyya, Thèse dactylographiée, Parie, Sorbonne وقد أعاد صياغتها الدكتور الحاج صالح في إطار منطقي رياضي حديث، وتدعى اليوم النظرية الخليلية الحديثة La Thèorie nè- Khaliliènne ويستثمرها فريق من الباحثين في مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية بالجزائر.
- ¹³ د. تمام حسن: الأصول، دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب: النحو، فقه اللغة، البلاغة، عالم الكتب، أميرة للطباعة، 2000م، القاهرة، ص242.
- ¹⁴ أ. د ميلود منصوري: الفكر اللساني عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، مجلة العلوم الإنسانية- جامعة محمد خيضر بسكرة العدد الثامن، سبتمبر 2005، ص248.
- ¹⁵ د. عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص158.
- ¹⁶ د. عبد الرحمن الحاج صالح: مجلة اللسانيات، المجلد الأول، الجزائر 1971، ص51.
- ¹⁷ سورة إبراهيم: الآية 4.
- ¹⁸ عبد الرحمن الحاج صالح: مجلة اللسانيات، م2، ص52.
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص55.
- ²⁰ عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية الدار التونسية للنشر، تونس، 1986 م، ص24.
- ²¹ عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان ص38.
- ²² المصدر نفسه، ص39-40.
- ²³ مجلة اللسانيات، المجلد الثاني، ص38 ينظر أيضا: سيبويه: الكتاب ج2، دار صادر، بيروت، ص74.
- ²⁴ نقل هذا المصطلح إلى ترجمات كثيرة منها: علم الصوت، منهج الأصوات، علم الأصوات العام، علم الأصوات، علم الأصوات اللغوية، والصوتية، وكذلك مصطلح الصوتيات الذي اعتمده كل من عبد السلام المسدي ومحمد علي الخولي وأحمد مختار عمر. ينظر، أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، دار الفكر، ط3، دمشق، 2008م، ص72. استعمل دي سوسير مصطلح (Phonétique) للدلالة على العلم الذي يدرس الأحداث والتغيرات الصوتية عبر السنين، لذلك هو جزء من اللسانيات، فيما استعمل علم اللغة الإنجليزي والأمريكي مصطلح (Phonologie) على أنه علم يدرس الأصوات دراسة علمية لا يخص لغة بعينها، فهو يدرس الأصوات الكلامية ويصنفها دون الإشارة إلى تطورها التاريخي ينظر: عمر أحمد مختار: دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب القاهرة 1997، ص6.
- ²⁵ عبد الرحمن الحاج صالح: محاضرات بمركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية، الجزائر 2004.
- ²⁶ عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان ص40.

- ²⁷ عبد الرحمن الحاج صالح: مجلة اللسانيات، م2، ص48.
- ²⁸ المصدر نفسه، ص5.
- ²⁹ عبد الرحمن الحاج صالح: مجلة اللسانيات، م3، الجزائر سنة 1972، ص17.
- ³⁰ مجلة اللسانيات، المجلد الأول، ص23.
- ³¹ المصدر نفسه، ص24.
- ³² عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ج1، ص11.
- ³³ المصدر نفسه، ص12.
- ³⁴ المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
- ³⁵ المصدر نفسه، ص15-16-17.
- ³⁶ المصدر نفسه، ص19-20.
- ³⁷ د. صالح بلعيد: مقاربات منهجية، دار هومة للطباعة والنشر الجزائر، 2004، ص148.
- ³⁸ ينظر، عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان ص47، 87، 89، 109، 111، 172.
- ³⁹ ينظر، المصدر نفسه، ص184 إلى 198.
- ⁴⁰ قصد دراسته التوافقية بين علوم اللسان العربية وعلوم اللسان الغربية.
- ⁴¹ عبد الرحمن الحاج صالح: السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصحاة، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص8.
- ⁴² ينظر، الحاج صالح عبد الرحمن: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، 219/2.
- ⁴³ شغلت هذه القضية الباحثين في أرجاء الوطن العربي وأفرد لها بعضهم مؤلفات مستقلة، على سبيل المثال: المنطق والنحو الصوري، د. طه عبد الرحمن، والنزعة المنطقية في النحو العربي، د. عبد الفتاح الدجني وأصالة النحو العربي، ومنطق العرب في علوم اللسان، د. عبد الرحمن الحاج صالح، كما أفرد لهذا الموضوع مقالات خاصة، منها: خواطر حول علاقة النحو العربي بالمنطق واللغة، د. عبد القادر المهيري، حوليات الجامعة التونسية العدد العاشر، 1973م، كما شغلت هذه القضية المستشرقين، ينظر: جيرار تروبو: نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه، مجلة اللغة العربية الأردني، ع1 المجلد الأول 1978، ص125-138.
- ⁴⁴ عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص10.